

المقبر

الجزء الثامن من المجلد الثالث

شعبان سنة ١٣٢٦ الموافق سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٠٨

صُدُورُ الْمُتَبَيَّنَاتِ وَالْمُغْجِبَاتِ

مومسن

حدث في أوروبا منذ عام ١٨٢٥ بما تجدد في الحياة الاقتصادية من التواميس انقلاب هائل بفضل تمديد الاسلاك البرقية وتبيد الطرق الحديدية وتكاثر الآلات الميكانيكية واستخدامها في العمليات أكثر من النظريات فقامت الصناعة والتجارة والطرق البحرية والسكك الحديدية والبواخر والمراقي والتبرع والمعامل والمصنوعات والمستودعات بل وكل ما يدعى بلسان الاقتصاد الصناعات الكبرى واخذت كلها تظهر على الولاة بظهور الافكار والآثار . حدث هذا الانقلاب في ألمانيا بعد ان تأخر قليلاً أي بعد عام ١٨٤٠ قال هنري تريبشك : « كانت الانتخابات في ذلك الزمن والمناقشات في الامور الادارية مطمح انظار الرجال وموضوع تأملهم حتى جفت الحياة العائلية او كادت ٠٠٠ اما النساء فانهن اخذن بالاشترئيات الى الدخول في الاعمال التي كان قبض عليها الرجال الى ذلك الحين ولتطالان لاثنيق من السبيل المؤدية بين الى مضارعتهم ضاربات صفحا عن دعوى ما يحدث مما اتصفن به من صفات الانوثة وحدها فقط من التأثير في حياة المجتمع الانساني . وقد كانت ايقظت المطبوعات العامة والآداب في الخلق لذة العمل والهمة والنبات حتى ان ميراث ذلك الزمن العظيمة قد تمثلت في الاثاث والرياش »

وقع هذا الانقلاب في حياة الشعب العميلة والفكرية والصناعية ايضاً ايام كانت ألمانيا

مدينة الفلسفة والادبيات والعلوم التاريخية فقط وكان لها بعض الصيت في فروع العلوم الطبيعية الاخرى .

فلم يرض على الالمانيين بعد ان وجهوا نحو هذه العلوم وجهة السعي والتفكير حقبة من الزمن حتى اخذوا منها السهم الاوفر فبرزوا بها وبرزوا وانبع لفريق منهم بعض ما هو جدير بالدهشة من المخترعات والمكتشفات : فماظهر من مستحضر " Giessen " واعني ذلك المكتشف المهم في تحولات المادة العضوية بدل نواميس الحياة وما وجده « دود » من ناموس سير الرياح في الفلسفة الطبيعية كان أسماً لعلم الظواهر الجوية الجديد .

وتبدات الفاسفة ايضاً تبدلاً كبيراً فقد بدأت اولاً بتعديل نظريات الفيلسوف هيكل بعض التعديل باخراجها من دائرة الفاسفة الخوض على ايدي تلاميذه الافاضل وتطبيقها على الحياة العامة . وعلى اثر هذا اخذ ماشوت يظفر في فوى الدماغ وحركاته حتى وفقى الى تحليله تحليلاً كيمياوياً وقام العالم كارل فوغت واسس قبل داروين مذهب التحول « ترانسفورمزم » في كتابه اوقيانوس والبحر بينا كان داود استراوس يحدث ثورة هائلة يصنفه حياة عيسى وتناول نظريات ديدرو وهولشيوس المادية وانفرد ناظرًا في الجزء الفرد والمبولى وأثار العالم فورباخ في ذلك الزمن عالم البابوية بوثاقه المسمى حقيقة النصرانية .

هذه هي سمات الافكار التي كانت تهب في عامة اتجاه المانيا والآداب اول ما استهدفت لمؤثراتها فقد حل محل ذلك الجيل الخيالي جيل مفنن بالحقائق غير المجردة مولع بالوقائع والحداث الطبيعية وهو الجيل المادي الذي لا يعرف غير التحقيق مشرباً .
وانك ترى حينئذ الادبيات الخيالية اشبه بالهية بسيطة يتاهى بها الفتيات وقد نضبت مياه الشعر المترفقة وجف تبعه السيل .

اعظم ادباء هذا الدور غستاف فريتنغ الذي كان نابغة في بث روح الحقيقة على ما هي عليه فيما كان يرويه عن سذاجة حياة الطبقة الوسطى من الناس في قصصه الخيالية ورواياته وكثيراً ما كان يكاش مذهب الخياليين *Romantisme*

ولقد هم فريتنغ بالقضاء على هذا المذهب فقام واسس في ليبسيك بمعونة مديقه جولييان اشتميد مجلة تدعى : كرازتدن وكانت صبغة هذه المجلة سياسية ونزعتها يروسية علناً

دخل غستاف فريتنغ عالم الكتابة عام ١٨٤٤ بوثاقه القصصي المسمى « العالم » وهو عبارة عن سلسلة اجاث في التربية العامة . وكان رجلاً من اقوياء الفكر وعباد الحقائق غيوراً ليس في نفسه اثر للرحمة في مقاومة ما بطل من الافكار والخيالات وبه اصبحت بلدة

ليبسيك مركزاً نارياً لازدانة الدعوة البروسية ونشرها في الاتحاد فاجتمع حول مجلته عام ١٨٤٨ شرذمة من اولي الفضل الواسع ممن يحبون بروسيا واوضاعها حباً حمياً

ومنهم فوئدال وكاتوليك اللذان شهرا على مذهب الغياليين حرباً عواناً ادارت رحاها الافلام وازمعا كما قال اشميد ان يبترا تلك القطع الفاسدة من آداب الالمان وبنبذها نبذ النواة فكنا نجدان في ان يكتب القول الفصل للسياسة البروسية في كل صقع آتين على كل ما فيه اثر التصنع ومسحة التكلف والتعمل وغير ذلك مما كانا يعدانه من الآفات المحتاجة لعواطف الجرمان واخلاقهم ومبادئنا لسعادة الامة وحسن نظامها . وعندهما ان لبروسيا فكراً سيحتمل الى ماضيها تاريخ مجد مؤثّل بالرغم من مقاطعاتها الناقصة وحدودها المتناثية . ولهذا فان الالمانيين راغبون من اجل سعادتهم عامة وسلامتهم في اعلاء اسم الجرمان باتحادهم تحت لواء تقدم بروسيا نابذين امتيازاتهم وشعورهم الشخصي ظهرياً . ولما اثني فريبنغ لأول مرة في ليبسيك على مهمة بروسيا وموقعها من المانيا حول قسم كبير من منوري الافكار في المانيا انظارهم نحو بروسيا التي كانت جنديّة الحلية اريستوكراتية المتزع غير مفكرين فيما يتخلل نظرياتهم السياسية ومذاهبهم من التناقض على ان الفرق طفيف جداً بين عالم الالمان — ذلك الجيل الناشئ على افكار داروين واستراوس الفلسفية وبين جنود بروسيا : فكلاهما مولع في النقاط الحقيقة ومن ذوي القوة والبطش والافتداز . اما بروسيا فقد كانت هيئة مسيطرة على غروب المذهب الحقيقي : على السياسات والادارة والجنديّة والاقتصاد وبالجملة فقد كانت متشعبة الروح بجميع انواع المذهب الحقيقيين . وامتازت بمضلة هي فوق ذلك كله وهي انها كانت تحس بوجود ميل خارق لاشق الفرنسي كلما اقتربت منهم .

ذلك هو الفكر الذي جال في خاطر طلاب كلية المانيا الجديدة « بروسيا » منذ عام ١٨٥٠ . واول من كان موفقاً لابقاء هذه الوظيفة على غاية ما يمكن ان يكون من الائتلاف والكمال المؤرخ « مومسن » :

تيودور مومسن من اغرب الالمانيين خلقاً وخلقاً اجتمعت في نفسه الاضداد باجمعها فهو عالم كبير كما هو خيالني كبير ومع هذا فقد كان يومي الناشئة الجديدة في ان يتلقوا ماله من الغيالات نموذجاً ليس من وراثها فائدة تذكر . وهو ديمقراطي على حين لم يوفق احد الى خدمة المذهب القيسري « ستراريزم » ثقاتل ما عمله في مصنفه تاريخ رومية . ولد عام ١٨١٧ (ومات سنة ١٩٠٣) في مقاطعة غاردننغ من اعمال شلويك حيث كان ابوه راهباً . ونش على هذه النعمة الساحلية الغربية التي كانت ترى براعيها الواسعة وحقوقها الشاسعة ذات غضار

ونضارة من الداخل اشبه بلون بحيرة تضطرب بأمواج كالجبال من الخارج واذا عملنا بآراء احد الفائلين بذهب تين من المؤرخين كان من أنفجر عنهم الحياة سيف محيط كهذا مكتشين مكدرين في حين كان مومسن من ابداع النموذجات الابداع البشري حياة وابتهاجا واباساما . واصحح ان هذه النموذجات غير نادرة في المانيا .

يظن الفرنسيون ان اقليم البلاد الشمالية البارد الذي يتخلل سكونه حزن مهيب يلد اناسا قد لعبت بهم المصوم وتسمتهم الغموم على العكس في اقليم البلاد الجنوبية الزاهر المستنير باشعة الشمس المشرقة فانه يلد عنصرا خفيفا ارعن . والحال ان عكس هذا في الغالب واقع في المانيا ولا سيما في الجنوب فان في صحاري سواب الخصبة المشبعة وفي الكروم التي تروى بنهري الرين وموزل قد نشأت عقول واسعة رصينة وفي وسعها ان تحيط بالعالم بأسره . والشعراء الذين نبغوا ثم قد تغنوا بآهية حياة الجرمان وحقيقتها باناشيد لطيفة خفيفة غير انها ثقيلة الاوزان . اما في الانحاء الشمالية فان صحاري بومبورينا وبراندنبورغ المبتورة حدودها قد انشأت قادة عاملين وساسة جسورين وكانت هنا حتى الادبيات تلعب بهاميل الحرب والجدال وسرعان ما كانت تدخل في شكل المعارضة .

مومسن هذا من نابتة ذاك الجنس اذا رأبته رأبت رجلا مقداما ان تحرك فكأنما يتبرى لعمل جديد . وانه بسبائه العصبي الذي ينم عن كل خير وعينيه اللتين تترك منها اشعة الحياة والمكر وشفهية اللتين ترسم عليهما ابتسامة الاستخفاف والاستهزاء بذكر بفولتير العظيم وهو ببعض اطواره المتبعثة منها عوامل القوة والغدر حتى في حالة السرور والنشاط وبوجهه الذي نال منه المقرض فلم يبق ولم يدر اشبه ببولسكه ام اند حدو القذة بالقذة . اما مياؤه الذي يتراءى من خلال مصنقاته فهو عبارة عن شخصية غريبة مؤلفة من طبيعة متسعة منفعة متوقدة اي من حدة المزاج مزوجة بطبيعة اخرى حقيقية ماهرة في استخراج المغالطات المادية العملية وفتح المناطيد التي وسع نطاقها حب الفناخر والغرور



في مومسن شخصان لا يجتمعان كل الاجتماع ولا يفترقان : عالم وصانع . ولا شبهة في ان العالم مومسن هو من خوارق القرن التاسع عشر ومن اعظم من هم جديرون بالتعجب والاحترام فان معارفه وسعة اطلاعه متنوعة ثنوعا غربيا وانك لترى تجلته التي رأسها خمسين سنة وطابا حفل بما لا يكاد يتناهى من الكتابات في تلك الموضوعات المختلفة كآثار رومانية القديمة وعلم الالسنه وعلم المخطوطات وعلم المسكوكات والحقوق وعلم الاساطير هذا عدا انه العظيم الذي جمع فاعى من التدقيق والتحقيق العلمي الواسع وغزارة المادة وجودة

المصادر مما اهله لبولوج اقصى درجات الارتقاء . ولقد كانت المترجم به ملكة كبيرة وقدرة باهرة في قراءة الاسئلة القديمة الميئة وموافاته برمتها شهادة تاطقة بالبرهان على انه كان موسوعة من موسوعات العلوم .

كان مومسن يرى مع من يرى ان العلم غير منحصر في دائرة محدودة وانه عام مشاع . لهذا كان لا يستحسن تهافت الالمانيين على تعميم فكر الاختصاص ولا بقيم لتهاكهم على انتشاره وزناً . فقد قال في خطاب اوردته في مؤتمر برلين العلمي في اللغة اللاتينية : « الاختصاص في فرع من العلوم فقط واجب ولكن ليس من الواجب الافتصار على ذلك الفرع والقرب دون غيره باسداد بل يجب على الطالب السعي لان تتوفر لديه المعارف في هذا الفرع وان يصيب حظاً من كل شيء » . فما اصغر هذه الكثرة الارضية واحقرها في نظر من لا يروون غير كتاب اليونان واللاتين وطبقات الارض والمسائل الرياضية في هذا العالم الفسيح ! . . . « ومن غريب التضاد كون مومسن مفئناً خيالياً مع سعة اطلاعه العلمي المدهش . وانك لتذهل عند ما ترى هذا الرجل في نفس الامر الذي يحمل تلك الجبهة ذات القوة والنوادة والوقار من الشعراء المتأثرين . غير انه ليس نظير ميشله المؤرخ الفرنسي الشهير تأخذه الهزة والانفعال اكل جميل فهو لا تأخذه رحمة وشفقة لآلام من يفتشون الارض ويتقننون السماء من بني آدم ولكنه صاحب عقل متأثر لا يتبين الا بمئاته وقوة دهائه فقط في هذا العالم وهو من اجل الاشياء التي تثير ضياء وشروا اشد ما يكون احتداماً وهيماً . كان من المحتمل بقاء غرائز مومسن في العلم والابتاعه طلي الخفاء لولا ان قبض الله لها رجلاً في برلين عام ١٨٥٠ يعني بنشر الموء لقات فرغب اليه كتابة تاريخ لرومية اذ كان يبحث عن كاتب يشغله في كتابة امهات التاريخ . فاصاب ذلك الرجل المرمي في اختياره هذا لان المترجم من المشاهير الباحثين المدققين ارباب الاطلاع على تاريخ رومية . ومن المعلوم ان اساطين العلم لا يقدمون في الغالب على تأليف كتب تتناولها الايدي عامة وتداولها الطبقات كافة . وقد حصلت له ملكة سامية جداً عند ما كان يعاني من صناعة الصحافة ما يعاني ولهذا ظهر تاريخ رومية مؤلفاً ثميناً . وليس مومسن من تلك الطائفة الشائخة اساندة الجرمان التي اتخذت العلوم المنتسبة اليها ديدنها وقضت حياتها وفقاً خالصاً عليها بل هو اشد ما يكون تأثراً وانفعالاً لمسائل العامة .

ربي مومسن في كلية كيل فحيزته بيجاز حب بلاده حباً جمّاً ولطالما قرع اولئك الذين يقولون انه يجرى في عروقه الدم الدانياركي بقوله : « ان من يدعون ان مدينتي شلزو بق وهولستاین ليسنا من تراب المانيا هم في الحقيقة معنوهون مفتونون . ولم يدخل مومسن في

الدياسية خلال سنة ١٨٤٨ وهو وان لم يحضر بصفة عضو رسمي في مؤتمر فرانكفورت فقد كان من ادهش المعاميين عن حقوق الافراد في ذلك الحين . فقد دافع اشهرًا عن قواعد السياسة الحرة وانقطع هو ورفيقان له في مدينة زوريخ من اعمال سويسرا عند ما نُحى عن منصب تدريس حقوق رومية وكان استاذًا له في كلية ليسيك عام ١٨٥١ ولم يعم ان أعيد كرمي التعليم ثمة واصبح يشتغل بتدريس ذلك الدرس نفسه زهاء سنتين . وفي عام ١٨٥٤ غادر سويسرا بدعوة من حكومة بروسيا الى كلية برسلو . وكان يرجو دائماً تقدم شبان هذه المملكة ولطالما قال : « ان حياة بروسيا لتوقف كل التوقف على سلوكها سبيل التقدم الذي مهد لها فريدريك الكبير » .

هذا وان بين مومسن وبين ابناء صناعته فرقاً بعيداً وذلك انه ظل صادقاً مستقيماً حتى نهاية زهو شبابه ولم يكن ليغفل مثلهم بفخخة ما اناه من امارات النصر ولا عظمة ما ناله من بوارق التوفيق



كان بدء احتفاظ مومسن بافكاره على ما شوهد اشد الاحتفاظ بين سنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ والامر الذي كان يتطلبه هو ان تكون المانيا عظيماً سلطانها منيعاً جانبها تضيء باسمعتها العلمية العالم انتد من اسره . وما حكاها : « ان تلك الشؤون السياسية قد شغلت حتى علماء المملكة سنين كثيرة . وهذا وان كان يستند على اسباب معقولة ومشروعة غير انه حان زمن الاقدام والرجوع الى الاعمال بعد ما تبنت نتيجة كل شيء . . . » وكان يقول : « من الواجب معالجة يتابع قوى المانيا بالقوة وتوسيع نطاق علوم الالمان وكشف غطاها بالمعمل » ولطالما حقر مومسن اولئك المتعصبين الذين كانوا يناهضون الموسويين بالبلغ ما يمكن تصويره من عبارات التقدير عاداً انواع هذه المبارزات الجنسية والدينية من رجوع الفهري لاظم ايام القرون الوسطى واشدها امي وبؤساً . فمن ثم تدبى بعض ضعاف الفكر من حسدة حزب الوطنيين مبيناً بطلان دعاوي تلك الفئة الواهية الواهنة ممن ادعوا بان الموسويين عقبة كؤود في سبيل تكوين امة قوية المنعة منصونة الحمى وبينت بمسندات تاريخية حجة انهم مستعدون لكل صروب التقدم والارتقاء وانهم على العكس مما يظنون . وانتقد سياسة بسمارك انتقاداً شديداً الخاكمه الوزير الى المحاكم حكمت ببراءة ساحته وكان عضواً في مجلس الامة ليس بين المؤرخين من يقاس بمومسن في تحجير الصفحات التاريخية العظيمة او تحريرها غير ارنست رنان فقط . فتلک التصورات الواسعة واحدة والنسبة فيما بينهما واحدة كما ان قوتها في البيان والاداء سواء . اما المهارة في اشراق روح الحياة للاشياء كما كانت

بإظهار دقائق التفاصيل والفروع الواسعة التي من شأنها ان تبقى في الحافظة منقوشة فواحدة
ايضاً في المؤرخين مومسن ورنان .

ولما كان مومسن ايضاً كسائر مؤرخي الالمان المتفرعين عن نيبور هتم كثيراً بحياة
الامم الشخصية وكيفية نشوئها وانتشارها فانه وجد تاريخ رومية مساعداً كثيراً لاتباء هذا
المقصد الذي يتوخاه . ولما حل مسألة الوطنية ووضعها رغب في تعليمها معاصريه وكان مثل
هيبولت تين يستمد من الاختراعات العلمية والمكتشفات الفنية بأجمعها لان تقدم العلم ولا
سيما ما يتعلق منها بعلم الحياة قد ساعد التاريخ كثيراً . فقد تقب مومسن اولاً عن بعض
ما خصت به ولم يقبل ما في مذهب تين من المادية البحتة بل ولا جميع افكار المؤرخين
في هذا الباب ومن حملتها امكان استخراج خصوصيات امة من اخلاقها الخاصة بها بل من
الامور التي هي من قبيل الاسباب المادية كالتراب والهواء ونمط الغذاء .

وكان نظره مقيهاً نحو « الحجرة الابتدائية » للامة الرومانية لانها فقط امكن لرومية
ان تحكم ايطاليا فالعالم اجمع . فاجتهد في كشف اسرار الرومانيين وسبب تفوقهم على الامم
القديمة متخذاً ذلك له اساساً متيناً فاذا اراد تحليل فوز الرومانيين وغلبتهم يبدأ في اظهار
ذكاؤه هذا الجنس اليراق وما فطر عليه من حب الاقدام والعمل وما يشعر به من نقديس
الواجبات والقيام بها حق القيام وهكذا بعد ان تتبع كما رأيت احوال الامة الروحية في
سائر مظاهرها ابان كانت عروق الحياة تنبض في جسمها وهورانمب في ان يجلو تاريخه على
هذه الافكار كلها ثم يرفه للناظرين

على هذه الاصول نفسها جرى تين ايضاً في عامة مؤلفاته الانتقادية المهمة ولا
سيما تاريخ ادبيات انكترا . وهذا الاسلوب من جيااد الاساليب غير ان له محذوراً واحداً
وهو ان الحادثات تلد طبيعية والرابطة التي في خلالها تأخذ شكلاً منطقياً متسلسلاً بحيث
يخجل ان هذه كلها قد اعدت من ذي قبل والنصر المتوالي الذي بدأ من ابواب رومية ثم
وقف في اقصى تخوم العالم المتمدن يشبه مصوراً « خارطة » قد رسمت بداية بدء وعول فيما
بعد على ادخالها الى حيز العمل

فالمترجم نظر الى تاريخ رومية من نقطة سياسية تماماً ويشاهد ما بذله من العناية في جماع
مظاهر الحياة القومية للظفرة الاولى . وفصول كتابه في الزراعة والتجارة والصناعة والآداب
اجمع ما كتب في مثل هاته الموضوعات حتى الآن . وما كان برئيسه ان السياسة هي اهم
واسطة لبيان احوال حياة الامم وهي التي تحدث تجميداً وانقلاباً في جميع الشؤون

لتتبع التاريخ السياسي وتدقيقه خطتان الاولى : خطوة توكفيل الفلسفية وهي عبارة

اتخاذ اوضاع الامة وقوانينها المادية والفكرية اساساً والعمل على كشف استمرار تولدها وتناجها أكثر من النظر في حوادثها وكنائنها . ويعتق ان يقال ان هذه الخطلة عميقة لأن الكتاب لا يظهر نفوره أو ارتياحه لحالة سياسية معينة . ومن ثم كان ذلك المؤلف غيرياً لا انانياً . والثانية تحليل الحوادث التاريخية ببعض افكار تنطبق على آراء سياسية واجتماعية او دينية وبها يختلف التاريخ حسب النظر ووجهته .

ولقد وق مؤرخو الالمان انفسهم في الربع الاول من القرن التاسع عشر من هذا الاسلوب التاريخي الذي اتخذه كتاب الانكليز والفرنسيين مثلاً يحتذونه . وهذا نيبور ورائك المؤرخان الالمان بصفتان الوقائع التاريخية ويصورانها دون ان تشتم من تضاعيف سطورها رائحة تحزب او تعصب بشائناً .

وفي عام ١٨٥٠ نشأ صنف من المؤرخين على غير تلك الطريقة والسبب في ذلك اجتماع طائفة من الاساتذة الافاضل في مؤتمر انكفورت واشتغالهم بالسياسة بعض الاشتغال حتى اذا ما نقلوا مشاغلم الخارجية الى ارائك تدريسهم اخذوا يضعون موضع المذاكرة والبحث هاته الاحوال السياسية الحاضرة التي اورثت المسائل السياسية الغائرة تلك الاطباع وذلك هو نتيجة الثورة السياسية سنة ١٨٤٨

وهاهو ذا مومسن قد حاز الاولوية بين فريق هؤلاء المؤرخين هذا الرجل الذي كان يتخيل حيناً يكتب تاريخه ان تعليقاته تنطق على التجارب الماضية على حين ان القسم الاعظم منها كان ناشئاً في الغالب من شعوره الذاتي وتابعاً لاحوال محيطه وقوته الخيالية زبدة فلسفة تاريخ مومسن « براز في سبيل الحياة » براز دائم من اجل تكوين جامعة سياسية وضمان عظيمة قومية . وعنده ان تاريخ رومية يمكن تلخيصه بعدة قن وحروب بدأت فيما قرط باعداد الجيوش وسوقها كما بنيت على اساس تجاري ودولة رومية الزراعية التجارية التي تحيط بها قبائل الاعداء من كل ناحية وجهة تحارب اولاً صوناً لتجاريتها من ان تبور حتى اذا ما انصبغت السياسة اذ ذلك بصبغة حكومة مطلقة تعمل على التهام ما حولها مما لا يزال فنياً .

وكثيراً ما تجدد مومسن يرجع الى هذا ناموس حياة الامم فيعتبره بمثابة ناموس الثقل في موقعه ومساس الحاجة اليه . وكان يقول : « لما كان المقصود الاعظم من التاريخ المدنية والمدنية تعمل على تشذيب ما ليس فيه قابلية للنمو واستعداد للنشوء من الاغصان كما ينبغي كانت الحرب عبارة عن آلة جسيمة من الاصلاح لانشاء الرقي العام وان سعادة مملكة ليتوقف على تبدل مبارزاتها الى حروب ! . . . »

الا وان فلسفة تاريخ كهذي نفاسب جداً حال امة — بروسيا — تحارب نفسها بنفسها
مرات ثلاثاً متتالية وتساعد كثيراً على تعميم الرقي والتقدم في الدنيا اولاً ثم في اوربا والعالم
اجمع . ومع هذا فالمترجم لا يفهم صوته الى صوت الفيلسوف «يكل في قوله : « ان وراء كل
حرب فكرة اخلاقياً والقوة والفضيلة » لفظتان مترادفتان » ولا هو ايضاً من ارباب الاشتغال
بالاخلاق . وكان يقول بهذا المومس التاريخي : « الحق مع القوة والتاريخ يكسر
في مهب عواصفه العاتية الامم التي لا صلابة فيها ولا مرونة كسر القولاذ دون ان يشعر
بأثر رحمة او شفقة مطلقاً »

هذه هي نظرياته التاريخية التي يظل الانسان حائرًا حينما يرى انها وامثالها يدافع
عنها ويحامي في وطن رجل مثل ذلك الفيلسوف كانت . لكن مظهر المانيا عام ١٨٥٠ تغير
عما كان عليه على عهد الفيلسوفين العظميين فينيتي وكانت . اذ ان نلاستها المحدثين اروها
ان الاحوال والمواقع في تبدل دائم وان قيمة الحقوق نسبية والقابض على ازمتها هي « القوة »
فقط . ذلك هو مومس الدام الذي ليس في امكاننا معها احسن النقد نقضه او تبديله .
وناهيك بمومس كانت فلسفة بدمارك بأسرها عبارة عنه .

اول درس رغب مومسن في لقائه على مواظنيته وصيته العظيمة : « لا تكونوا المهاجرين »
ولقد تحققت أمنيته تلك . فان الجنس الذي اوجد بدمارك لا يمكن ان ينسب اليه بله او
عبادة في حال من الاحوال . وان تقدم امة الجرمان ليصادم النظر في اغلب فصول كتابه
فبينما هو يبحث عن الغالبين مثلاً اذ يشرع في وصفهم بقوله : انهم شعراء اذ كياه ذوو قلوب
صافية سرارها وليس بهم قوة ولا طاقة غير انهم طائشون يرتاعون من العمل في الحقول
والمزارع و يرتاحون للحانات والعردة ويعتبرون قسيسهم ابا ومنه يرجون النصح في كل شيء .
وكان مومسن لا يحب الفرنسيين بته ومن اجل هذا فانه حيا تلك المعركة التي ثبتت سنة
١٨٧٠ على انها للالمانيين مخلصاً لم يحرقهم من داء تقليد فرنسا . وقد بحث في كتاب
كتبه لارجاع الايطاليين عن فكر اتفاقهم مع فرنسا في اضمحلال بابل الجديدة « باريز »
وسقوط ادبيات فرنسا التي هي اشبه بنهر السين اتساحاً ودناً .

هذا الميل الذي كان يشعر به مومسن نحو بلاده كان يحول في خلال كل سطر من
تاريخه وفوق ذلك فانه كان يرى العناصر الاخرى بجانب العنصر الجرمانى منمطة جداً .
ولم يكن يميل للامة اللاتينية وان كان يتظاهر بذلك احياناً ولم يكن مصدر ذلك حب
حقيقي وزد على ذلك فانه كان لا يرتاح الى افكار هذه الامة مع ما اوتيه من المواهب
الطبيعية وما فيه من المبادئ السامية وما أتبع له من معرفة العظماء ومما قاله في ذلك « ان

الابطاليين لا يمكن ان يدخلوا في مصاف الاسم التي تلعب في طبائعها الغرائز الشعرية لفقدان تأثر افنديته انما لا تقاس أمة بالابطاليين في البلاغة والتأجمات . . . »

وانك تجد لسانه الجائل في تلك الابحاث وهو يحكم حكماً باناً قاطعاً مرتبطاً بفكره وشعوره تمام الارتباط . فهو مثل تين حذو القذة بالقذة لا يعرف عن الاسلوب الذي تمسك به قيد شبر . وفيما هو يكتب في التاريخ يبين الآراء ويثبت ما اتى به من نظرياته الخاصة تراه يطرح من الوقائع كل ما يوشك ان يوقع في هذه الآراء والنظريات خلافاً . . . فهو يريد ان تكون الاممة الرومانية سالكة السبيل الذي اختطه لها لاتحاد عنه ذات اليمن او ذات الشمال . خذ اليك مثلاً ذهابه الى ان الدهاء في غير السياسة لا اثر له في الرومانيين وجزمه بما ذهب اليه جزماً باناً تجده يعزز هذا الحكم باستنتاجات قوية وبراہين جلية متينة . وان الامان ليترأى . . . ان لم من جهة الانظام اتم من الرومانيين الذين هم واولئك في السياسات والمعارك سواء . وكذلك يشعر المطالع من طرف خفي بمدحه الامان في خلال حطه من العنصر اللاتيني وانه ليفخر قائلاً : ان القسم الذي وقف سداً منيعاً بكل ما فيه من قوة ورباطة جأش امام هجمات الغول على رومية كان مؤلفاً من جماعة الوطنيين فقط الذين يجري في عروقهم دم الجرمان .

وهكذا جاء الكتاب من اوله الى آخره على هذا المنوال فهو اشبه بقصيدة نظممت للذبح عن المانيا والالمانيين . وبعد فليس بالزر التافه القليل الذين استفادوا من تلك الدروس التي القاها مومسن في تاريخه وافادوا بما جمعو من المؤلفات الجمة في احوال عنصر الجرمان الروحية التي دعت اساتذة التاريخ والجغرافيا واهل الاختصاص في علم الانسان الى ان يبينوا افضل عنصر الجرمان على رؤوس الاشهاد فعلت الضوضاء حتى سفي الكتب الجغرافية المدرسية « بان المانيا قلب اوربا حقيقة وان ما في فرنسا من كل شيء جميل انما هو مدين لعنصر الجرمان ! . . . »

معربة عن التركية

ص ٣٣٣

دمشق

